عبد اللطيف الحسيني

مسْودّات مُدينْة

نصوص عن عامودا

www.amude.com

مسـْودّات مُـديـْنـة

عبد اللطيف الحسيني

صدر للمؤلف

- نحت المدن الصغيرة 1995
- كتاب عامودا 2001

الاخراج الفني للطبعة الالكترونية
سيروان حجي بركو

من منشورات مركز عامودا للثقافة الكردية (15)

www.amude.com
info@amude.com

29.11.2002

حقوق النشر محفوظة للمؤلف و موقع عامودا

إلى محمد عفيف الحسيني
كأنه هو الذي دوّن هذه النصوص
كأنه هو الذي أملاها عليَّ
لأحسّ بالغربة ..... والفراغ.

عن مدينة حالية ..... عن مدينة تموت

فليكن هذا الكتاب بهذا العنوان , لأنها هي التي تقول ذلك –لا أنا - رمزا . ولو تحدّثت بطريقتها المباشرة , اليوميّة . لما تحمل القارئ عنفها ولأنها كذلك حاولت أن أفك بعضاً مما لأملاه علي رموزها لتكون في كتاب : لها و عنها و حولها وكنت أخاف أن أدونها كلها . لكن الخوف يكمن في أنني لو دونتها فهذا يعني موتها إضافة إلى أن ذلك مستحيل لأنها متناثرة وعصية , فما كان مني أن ألتقط ما تناثر الي , وما وصلني عنها شفهيّا أو سماعا , وأحيانا كثيرة رؤية , وحتى رؤيا .
ان أردت أن أكتب عنها شيئا , فسوف تضيع مني , وتغيب عني أشياء . وهذا طبيعي لأن الكتابة لا تنتهي عند حدود كاتب واحد – هوأنا هنا - وان أردت أن أتخطّاها فكانت تضع لي حدودا ملغومة لئلا أقترب منها . وأن تخطيتها فهذا يعني أنني أخالف الجميع .
وحتى نفسي . لأن طبعها سحر . ولأنها مدينة تخذل المرء لقوّتها واستحالتها . وبالقدر ذاته لألفتها وحنوّها . خاصّة لمن غاب عنها وسمع عن أهلها الطيبين الطيبة . وشمّ رائحتها ورنينها سريعاً فسوف يحبّها . و إن جرّب هذا المرء نفسه أن يعرفها ويعيشها صميمياً ومرحلياً، فلربّما نبذها تماماً. تجاه هذين الضدين ما عليك إلا أن تحبها فتكرهها . وان تكرهها فتحبها . لكنها لن تبقى منسية ومهملة وحيادية في داخل كلٍّ منّا . وهي المعمّرة زمنياً قبل المدن التي تجاورها . بل أنّ مدن الجوار ولدت منها ، ومع ذلك فهي غير معروفة (وربما تهمل أيضاً) حتى انّ اسمها على الخريطة غير مدوّن . وإن دوّن فبحروف صغيرة لا تُرى . وهي غير معروفة ثانياً . وذلك من خلال التجربة . فلو سُئل أحد أهاليها في دمشق أو حلب :
من أين أنت ؟
لأجاب دون تردّد : من القامشلي .لأنه لو قال الحقيقة بأنه من عامودا . لما عرفها
لا أريد ان أعرفها للآخرين... البعيدين بالأرقام والتواريخ والأحداث. فذاك مجال آخر ابتعدت عنه أقصى ما أستطيع هنا .
فقد كان لي فيما سبق كتابٌ يحمل اسمها بعنفٍ وحب .
ماذا أريد منها إذاً ؟
هل أريد ان تكون لا كما هي عليه الآن ؟ وهذا ما يرومه الكثيرون من أهلها خاصةٍ أولئك الذين عاشوا وعايشوا مرحلتين فيها صاخبتين . فيهما تفرط في كل شيء : مد حاً وقدحاً.
فلربما كنت عنيفاً معها . عنف لا تريده هي إلا ان تكون . ولربما حفيّاً بها وهي لاتريد ذلك . فخالفتها جذريّاً وتحرّرت منها لأ قول عنها ما أشاء . وسيكون ردّ البعض عنيفاً: لماذا لم تدوّن الحادثة تلك ، المهملة اللائقة بالتدوين او المحرومة منه ، ودوّنت الحادثة هذه التي لم ينتبه إليها أحد ، ولن.
وسيكون جوابي : **الصمت** المتفجر : إنني عشت في هذا الكتاب ضمن مجال فتح أمامي أفقاً مكانيّاً خاصّاأاملى عليّ عنفه وحبّه وأنا بعيد عنه ، لأن الكتابة عن شيء مفتقد وعن بعد ، ربما تكون اكثر حميميّةً وخصوصيّةً . فكنت أشرّد نفسي عن مدينتي لأكون فيها كتابياً . إلى جانب تخطيطي الأولي لهذه المسودات : الكتابة بجنون عن مدينة حالية تفقد كل آنٍ وحين بعضاً من جمالها . وتعوّض هذا الفقد كلّ آن وحين بجمال خارجيٍّ لا علاقة لها به ، ومع ذلك كان تشرّبها له(نعم تشربها) مقبولاً ، وتمثله وتقليده سهلاً .
أليس هذا ما يقوله الكتاب ؟ لكن بشكل موارب ومبطّن .

آثار ...إحالات

الطفل الذي ليس له حجرةٌ خاصةٌ به ، ذهب غاضباً . وجلس في أحد الأركان.

شرمولا

قبل خمسة عشر عاماً ، قبل عشرين . كان صعباً الصعودُ إلى شرمولا . وإن جازفتُ أقول : مستحيلاً . وسهلاً اللعب فوقه لانبساطه . ومساحته الهائلة . أنا الذي لعبْتُ فوقه . تمددتُ على عشبه ، وربما غفوتُ فوق نقاوة ترابه . ولو أني كنتُ أحسّ بدفق الماء تحتي وقلق الموتى . وقفتُ فوقه كإمبراطورٍ : فاتحاً رجليَّ ، واضعاً يديَّ على خاصرتي ، محدّقاً إلى بيوت عامودا الترابية : لأرى طفولتي في شوارعها ومراهقتي وشجاري مع نفسي لأرى حبّي لابنة الجيران .ليكون غير الأخير .
كنتُ أدلُّ صديقي الذي معي _ أيَّ صديق _ بإصبعي على شارع بيتنا ، حتّى أنّني كنتُ أكذب عليه . وأقول له : تلك حارتنا :
ألا ترى طفولتي فيها ؟
ألا ترى طفولتي المستحيلة فيها ؟
ولا أدري كيف تحمّلتُ العيش فيها .
وذاك بيتنا ! وذاك أبي :
ألا تراه يصاحب الجدارَ كي يصلَ إلى ما يريدُ .
ألا ترى الدرج المشّوه ؟ والباب الخشبي القديم ؟
ألا ترى الداخل إليه . والخارج منه . وكان صديقي يصدّق كلامي المحموم . وأنا نفسي لم أكن أرى بيتنا ، لا الداخل والخارج منه وإليه .
وبعد عشرين عاماً _ الآن _ سوف أصدّق نفسي بأني كنتُ أراه فعلاً . ولم أكن بكذّاب ، ولا بمخادعٍ . وأنّه لم يكن يتراءى لي بيتنا الآن أصدق نفسي ، أصادقها حين أقف على شرمولا .
ولا أرى إلاّ أبنيةً إسمنتيةً قاسية وجبارة تحجب لا بيتنا فقط . بل تحجب نقاوة الهواء والغبار الذي يثيره الأطفال . وهم يلعبون بالتراب الملائكي : ذاك التراب الذي كان بإمكانك أن تأكله أو تشربه مع الماء . خاصةً لو ملأتَ كفك اليمنى به ، وكفك اليسرى بترابه الآن – المستعار – وقارنت ما تحمله كفّاك .
كان ظلُّ شرمولا ظليلاً . كان استراحةً لمن يأتي إلى عامودا قادما من قرى الجنوب : جولي - سنجق سعدون . سنجق خليل . راكباً حصانه وفرسه أو حماره . يأخذ هؤلاء راحتهم تحت ظلّه الرطب . وربّما نّومتهم رطوبةُ ظلّه .
شرمولا الآن . يسهل على الصبي صعودُ قمّته . ويصعب عليه اللعب فوقه : لفقره وموته . ليس فوقه إلا مساحةٌ صغيرةٌ متشققة تخاف أن تبتلعك . تخاف أن تتجه إلى اليمين أو اليسار . تخاف أن تقودك قدماك إلى اليمين أو اليسار . وتسقط في هوّة . أو تتدحرج من فوقه، كما حجرٍ يتزحلق من فوق منحدر .
أنْ تصعد فوقه الآن يعني : أنك تصاب بالبؤس والتقزّز . لو قارنتَ علوّه السابق بانخفاضه اللاحق .هل لي أنْ أقول : إن الحياة أيضاً هكذا . وإن الأصدقاء والأقارب والأعداء والسفلة والطبيين هكذا وإن النفس ماتتْ . وإنّ قوةً ما عظيمةً اضمحلّت بداخل كلٍّ منّا . ولو أنّنا لم نفقد إحساسنا بالجمال والمعنى بعدُ .
ولأن شرمولا رمزٌ ولو اندثر . فقد تغنى به كثيرون . كتب عنه الكثيرون بحرقة قاتلة . وغنّى له الكثيرون .
كان شرمولا علامةً .. منارةً ، علاماً . كان علامتنا : أنا الذي كنتُ أراه هكذا . هو الذي رآني . **هكذا أحسستُ به . هو الذي أحسَّ بي .**
كان للحياة طعمُ العيش فيها . تغريني بالعيش فيها . خاصةً لمن ابتعد عن عامودا مدةً قصيرةً .
فلو دخل هذا المسافر إليها : طريق قامشلي عامودا الأكثر تكراراً ومشاهدةً . ورأى من بعيدٍ شاهدة ملك " ايلو " فوق التل . كان يحسُّ هذا المسافر أنّ الطمأنينة احتلّت أنفاسه وكيانه .
يا الهـ .....ي .

فكيف بالمسافر البعيد الذي ابتعد عن عامودا زمناً طويلاً . لو عاد هذا المسافر إليها . ولم يَرَ شاهدة ملك ايلو . لا بدَّ وأنّ هذا المسافر يموت في داخله آلافُ الرجال . ولو كان المسافرُ – الرجلُ امرأةً . لبكى . ولبكى لبكائه العالم . ولكان دمعُه ودمُهُ فيضاناً
الآن فقط : أُبعد نظري عن شرمولا ، لئلا أراه . وقد فَقَدَ دفنه المتفجّر بداخله .
لئلا أراه . وقد فقد شاهِدَتَه .

<u>إنّه الموتُ الحقُّ ، فلترقدْ روحي بسلام</u> .

آثاره

كانت أضواءُ المنارة خضراءَ كما روح المسافر البعيد الذي أمضى طفولته ، وجزءاً صاخباً من شبابه في حارة الجامع الكبير . حيث مسكن والده، وذكرياته الأولى ، وحبّه الأوّل لابنة الجيران –ولن يكون الأخير –كم سهرت تلك الأضواء الخضراء له . ليسهر ورفاقه تحت هذه المنارة . مرّ هذا المسافر من هنا ، قريباً من هنا . حتى بات يهذي :

هذا ملعب صباي ..حارتي ...منزلي . وكم أشتقتُ إليه ، ألا اشتاق إلي ؟ أودّ أن أدخله ، أتسلق جدرانه الترابية – ولو كان بابه مفتوحاً – لأدخل إلى ساحة الدار - ليس للدار أية ساحة – لأفاجئ أبي ، أفاجأ بأبي أنه مازال يقرأ بهذا الجنون ، كما تركته قبل خمسة عشر عاماً . وسوف يرفع أبي رأسه ليراني ؟

-هل سيقبلني ؟

ما الكلمة الأولى ؟ الوجع الأول ليقوله لي :

ربما لن يعرفني ؟ وربما يجلسني بقربه ؟ ويعطيني قلماً وصفحةً بيضاء . كما كان يفعل حين كنت طفلاً لأشاغب على هذه الصفحة :

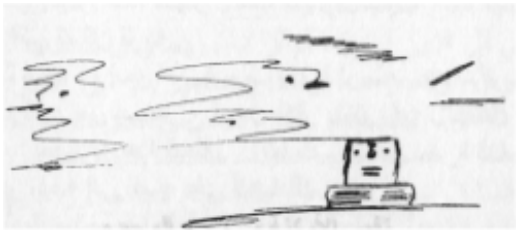

وربما يسألني : أين كنت ؟ وسوف لن أجاوبه . لأن العذاب سيفجّرني .

سوف تردّ عليه فيافي الدنيا :

كان معي .

آثاره البليغة

أمكنة ... ووجوه

نهر داري " نهر الخنزير"

سمّي بذلك لأن أهالي عامودا قتلوا فيه خنزيراً . كان ذات يومٍ يرتع على ضفتيه الغزلان قادمة من تركية . حتى أن تلك الغزلان كانت تضلّ طريقها ، فتندفع إلى عامودا . وإلى القرى المجاورة . حتّى أن الذي أرفدني بهذه المعلومة تخيلت أنه يتخيل : أن تلك الغزلان شوهدت في "سه ميتك نواف " .
ليس هذا النهر نهراً طبيعياً . اذ ليس في الأنهار – هذه القسوة التي لنهرنا ، وليس في الأنهار ما يناقضها – هذه المحبة . هذا النهر قتل " قُتيلَ " فيه الكثير . كان – حين يفيض – جيرانه الذين يسكنون بمحاذاة ضفتيه أشدّ رعباً . خاصّة حين يصطخب ، ويركب جنونه .
كانوا يتركون منازلهم خوف أن تلتهم مياهه بيوتهم . أنا الذي رأيت مرةً : حين جنّ هذا النهر : ذاك النهر الذي ملأت مياهه كلّ المنازل التي تسكن قربه .
وإن خفّ ماؤه ، واستراح . فسوف يكون لرمله عيد للأقوياء الذين يستخرجونه : من يستخرج الرمل أكثر ينظر إليه "كبطل
...صلب " حتى أن هذا البطل ....الصلب يصدّق نظرة الناس إليه :
فينظر هو نفسه إلى نفسه على أنه كذلك .
في الرمل المستخرج أعشاب غريبة . وأحجار ليس في الأحجار التي عرفناها لونها وملمسها . في تلك الأحجار ألوان لم نعرفها ، ولن . في الرمل المستخرج قطع حديديّة غريبة " لم نكن نعرفها نحن الصبية المرحون بها " قد يكون بين تلك القطع ما هو متفجّر. وقد تفجّرت بين يدي أحدهم قطعة تباهى بها أمامنا ، غير أنها قضت عليه .
لم يكن نهرنا طبيعياً . بل فيه مسّ ...قلق وعصبية . لا نعرف كيف ؟ ومتى ؟ ولماذا تستولي عليه حالاته : قد يجنّ في أيّ وقت لا تشاء ، ولا يجنّ في أيّ وقت تشاء . يصادقك حين تكرهه . ويكرهك حين تصادقه . لذلك ، ولأجل هذا . ثمة من يعاديه، ومن يناصره .
من عاداه ، واسترخصه : لم يحسّ بالنهر . ولم يحسّ النهر به أيضاً . مرّ بجانبه ، كمن مرّ بجانب جدار ، أو حجر.
ومن ناصره ، واستكبره : أحسّ بالنهر ، أحسّ النهر به أيضاً .
فالنهر له مكان أليف " وربّما يوعد إحداهنّ بالقرب منه " يجلس بجانبه على العشب الملائكي . كانت خضرتُه تفوح منها الرطوبة والجمال كانت " الماء والخضرة والوجه الحسن " أسهل المقولات ، وأعذبها . كان بإمكان أيّ كان ، مَنْ كان أن يحتلّ قلب فتاة ما . حتّى يُذهب بالقول مثلاً عليه .
ما كرّهني في النهر : وربّما لم أرَ أنا ، ربّما رأى المشاهد المدوّنة أدناه غيري . وكم وددتُ أن أكون منهم . هو أن النهر رفض االأجساد الأنثوية لتأخذ حريّتها ، لتمارس تفجّرها ، وتعبيراتها االمائيّة . لم أرَ جسداً أنثوياً مائيّاً ، ملطّخاً بلجينيّة ماء نهرنا . فالمشهد السابق – ولو كان مقروءاً – يفتح الجسم . وربّما يهيّجه
ما كرّهني في النهر : رأيت المشاهد المدوّنة أدناه . وربّما لم يرها غيري . وكم وددتُ أن أكون منهم . هو أنّ الفتيات والنسوة كنّ يغسلن جبلاً من الملابس ، وفرش البيت . وكلّ ما وقع بأيديهن وما لم يقع ، ما هو بحاجة إلى الغسيل ، وما ليس ...،كن يغسلن على ضفتيه ، ويوحلن ذهبية الماء . والماء مثل رجل معمّر وقور هادئ ، صامت . لا يحتجّ، ولا يثور . وهو يستمع كالأبكم إلى النميمة والبذاءة والثرثرة . وإن غادرنه . استراح النهر منهنّ . وإن أتى االمساء ثار . لم يكلّف نفسه ليثور – احترم شيبته – علّم الضّفادع لتصوّت بنقيق حادّ ، يسمعه كلّ البلد . وهذا أقصى أقسى العقوبات ينزل بهنّ في الصيف .ويرجّئ جنونه في الشتاء : يدرّب نفسه بنفسه طوال الصيف . ليخرج إليهنّ في الشتاء جبلاً.... مائيّاً جارفاً ، يتحدّاهن بأن يقتربن منه . وإن تحدّاه إحداهنَّ . فسوف لن ترى نفسها – وبلمح البصر – إلا وهي مرميّة عند المسلخ : شاتماً إياها ، مرعداً ، مهدداً .

لم يكن النهر نهراً ، كان ساحراً . فلو أردت زيارته فسوف لن يكتفي بأن تراه في مكان معيّن ، في بقعة نهريّة معيّنة . سوف يجرّك ((ليتجه بك إلى الشمال)) لتتعرّف على أخاديده وتعرّجاته ، وعيونه المتدفقة . سوف يأخذك إلى أن تستقبلك حدود يصعب عليك تخطيها ، وربما التحديق إليها . وربما النظر إليها ، وربما التوقف عندها . وربما الوقوف البعيد عنها .
"سوف تقف عند سكّة قطار الشرق السّريع" مكرهاً .
كان النهر .

لا
اسمه
ليس
نهراً .

ملاذنا حين نهرب من بعض الحصص المدرسية التي استسهلناها . فلم نكتب وظيفتها . حتى إننا كنا نسمع هديره . ونحن في باحة المدرسة القريبة منه ، الصاخبة . كان ضجيج النهر يفوق ضجيجنا وصخبنا ضجيجاً وصخباً . لو كنت أملك خيالاً لقلتُ : كنا نتحدّث مع بعضنا بالأيدي كالبكم . لأن هديره يرعد ، ويصمّ ، ويعمي .
((فلتجفّ أرواحنا ، ولا يجفّ نهرنا)) : هذا جوابنا لمن يقول متكهّناً للمسألة . فقد صدق تكهنه .
ولو أني لم أعترف لحظةً لا بالصدفة أو العشوائية أو الاحتمال أو التكهّن . لكنني ها هنا سأعترف بكلّها . أن يجفّ النهر يعني أن تطغى علينا مسحة الكآبة والقلق ، وفوضى المشاعر أن يجفّ يعني أن نواجه الحياة برأى قلقٍ ، وخوف غريب تجاه الأشياء و االناس و الهوامش .
أن يجفّ يعني أن نصبح قساةً وحمقى وانفعاليين و انهزاميين ((وقد أصبحنا كذلك بعد أن جف النهر ، وضاعت أخاديده ، و طمرت تعرّجاته وعيونه المتدفقة)) . بعد أن كان يتملّكك جمال رائحته وأنت تقترب ، تجلس بالقرب منه . آنذاك لن تنسى تعب الحياة و كفى . كان بإمكان النهر أن ينسّيك الحياة والدنيا ، و تعبهما وهمومهما ، وظلمهما .
الآن فقط يستطيع النهر أن ينسّيك ((حياة الدنيا)) لو قارنته و قايسته من الجنوب عند حدود المسلخ أو المقبرة . ومشيت في النهر حتى تصل إلى النقطة التي تنتهي فيها حدود النهر في الشمال . فسوف تخرج من هذه الرحلة المتقززة بما يلي :
راجع عبد اللطيف الحسيني .

من أراد أن يعبث بالنهر ، فلن يرفضه النهر ، لأنه لا يستطيع أن يرفض هذا الحقد كلّه ، وليس لديه الوقت الكافي لهذه الترّهات . بل يبتلع ما يرمى فيه : ترمى فيه أوساخ وقاذورات ، وبدورها ، هذه الأوساخ والقاذورات تعطي للمدينة ، للمكان أقذر الروائح ، وأقواها نفوذاً ، و أقدرها لجلب الأمراض ، وربما المميتة منها – خاصةً حين تحرق فيها موادّ بلاستيكية – هذا العبث بالنهر ، وهو عبث غير مسؤول , وربما يكون مقصوداً . وبفعل فاعل أيضاً . و إلا فلماذا لا يرمي هذا العابث الأوساخ أمام باب داره ؟ولماذا يأمر زوجته أن تلملم ، وتزيح الأوساخ من أمام باب الدار . هذا العابث ، أو العابثة ، حكم على سلوكه في الحياة أيضاً : اجتماعياً وثقافياً و دينياً وسياسياً بالعبث .

فمن عبث بالنهر. فسهل عليه أن يعبث بغيرها من القيم الجميلة لبلده . كان يجب على –أن يساهم – البلد ليكون مشعاً وطافحاً بشراً و جمالاً و بهاءًا يدخل البهجة –لا النفور –إلى النفس و الروح . هؤلاء البعض –العابثون –لم يقدّروا الماء لأنهم لم يعرفوا ولن – قيمة الماء . حتى لا حقاً و الآن - **وحتى الآن سوف يتأبد**- يشمّ النهر ، وكأنّه جثّة مقتول ، أو جيفة متفسّخة . وربما يمرّ هؤلاء بجانب النهر – وهم مسرورون بوضعيّة النهر هكذا : النهر الذي يرشّ على المدينة وأصرّ أن أطلق عليها اسم ((المكان)) لأحسّ الآخرين ، القرّاء بأنه مقدّس ، وأنّه أليف ، وأنه طفولتنا ، و لأننا أخيراً نحتاج إليه – روائح تهرب منها هروباً حقيقياً ، و ركضاً أحياناً ، لتبتعد عنها ، لا عن الروائح وعن النهر . بل عن المدينة كلها ، خوف أن تلتصق هذه الروائح بثيابك و جلدك .
أنا الذي لا أستطيع أن أمرّ بجانب النهر إلا مكرهاً ، وقسراً .
ولا أريد أن أسمع سيرته السابقة ، لأني سوف أقارنه بوضعه الحالي المخجل ، ولا أريد أن أسمع سيرته الحالية ، لأني سوف أقارنه بوضعه السابق الخلاق .
أريد من النهر أن يمحى من الوجود ، أريد أن يسوّى بالأرض ، لأمشي على هذه الأرض – النهر سابقاً - ولتبنى عليها عمارات أسمنتية فظة و غليظة ، بعدما كانت تحتها الجنة الأرضية :
الماء

متن النهر :

للنهر اسم آخر ((نهر داري)) يتداوله المسنّون ، ويصرّون على هذا الاسم ، فإن قيل لأحدهم : نهر الخنزير .يتفاجأ المسنّون بهذا التنابذ بالأسماء ، وتحويرها . فكيف لو علم هؤلاء المسنّون بأن أسماء كثيرة حوّرت ، لا الأنهار فقط . بل السّاحات ، و الأراضي و القرى أيضاً . يتفاجأ المسنون باسم النهر الحديث . فاسمه ((نهر داري)) . لا لأن النهر ينبع من داري ليمرّ مؤقتاً من هنا . بل لأن داري نفسها هنا . فهي بعيدة عن عامودا راهناً ، ومؤقتاً جداً . لا بل أن اسم عامودا اشتق من ((داري)). والتي تعني ((عمود)). وبمرور السنين سمّيت ((عامودا)) .
للنهر محطاتُه : كولاحيندرو – كولاشيخي دودا – لكن محطته المهمة . فإن ذكر النهر فسوف تذكر معه ((كولا عنتر)) وحتماً لتسميتها بلاغة وحكمة . فهذه ((الكولاعنتر)) البقعة الأكثر عمقاً ، الأكثر اتساعاً . كانت مسبحاً للشباب للهو ، ولقتل رائحة العرق اللزج ، وانعكاس أشعّة الشمس المحرقة على الثياب والأجساد . ولأن هذه البقعة أكثر عمقاً ، كنتَ تجد فيها اسماكاً غريبةً ، وبألوان غريبة .
للنهر حالاتُه ، أدواره, ثباته فكان يتعصّب : فيجمّد ماءه الدّفاق ، ليصبح جليداً .... صلداً بللورياً .
كان الجليد عيداً للأطفال: يلعبون فوق هذا الجليد " أيديهم محمّرة وأفواههم تخرج بخاراً " يلعبون فوق الجليد : يرمي عليه طفل حجراً يتزحلق من ضفته الشرقية فيلتقطه طفل مترقب في ضفّته الغربية .
النهر الذي يقطع المدينة شطرين " كأنه عصا نبيٍّ " : شرقيٍّ وغربي . حين يفيض ، ويغزو ماؤه ضفتيه .
كانت المدرسة في الجانب الغربي . والطلاب الذين يسكنون شرقي المدينة ، شرقي النهر يحلمون بهذا اليوم الذي طالما انتظروه طوال الشتاء ... فهذا اليوم ها قد تحقّق . وكم كانوا يحلمون بأنّ النهر يفيض ليمنع ذهابهم الى المدرسة . وكم اصيبوا بخيبات الأمل حين أفاقوا من أحلامهم التي أكّدت لهم : أن ذلك كان حلماً لا يتعداه
لم أحسّ بالنهر على أنه نهر وكفى . بل كنت أحسبه صديقاً حميماً يشكو لصديق حميم جنون الحياة عليه.
حين تأخذني الدنيا بقسا وتها ، فأطلب منها أملاً يذهب بقلقي تجاه الناس والهوامش الى الجحيم لكنها كانت تصدّني . كأني عدوّها الوحيد ، وتنسى مشوّهيها . ما عليَّ آنذاك إلا ان ألوذ بالنهر الى حيث لم اسمع شيئاً عن المدينة ، وعن أهلها .
فيجلسني بقربه ، يربّت عليَّ ، يمسح تعب الحياة من جبيني ، يكفكف عن عينيَّ بكاءًا مرّاً :

أنت وحدك تفهمني . يقول النهر :
لأني أفهمك ، فاغرق المدينة بمائك ، اسحب ماءك كلّه من الشمال ، وادلقه عليها لتغرقها . أردُّ عليه يقول النهر : يا أحمق ، تريد مني أن أكون قاتلاً في أخر عمري .
أردُّ عليه : نعم .
يقول النهر : انت تهذي ، فكن أنت نهراً ، واغرق المدينة ، لماذا تلقي ما تريده عليَّ ؟
أردُّ عليه محتداً : أنت الذي تهذي لا أنا . فكن أنت إنساناً ؟ إن أردت .
يقول النهر : لا تناقشني ،أجئت إلي ؟ لتعصّبني ؟هل قلت لأحدٍ أنك أتيت إلي ؟
أردّ عليه : أنت لا تتوقف عن النقاش والثرثرة . حتى بتّ تناقش ضفادع ضفتيك في الصيف ألا تستحي ، احترم نفسك قليلاً ، لو رأى الصغار مناقشتك مع الضفادع لضحكوا عليك ، لتغيظ .ثم إنني لم أخبر أحداً بالمجيء إليك .
يقول النهر باكياً : لا تكتب عني شيئاً أرجوك ، أريد أن أموت دون أن يحس بي أيّ كان .لأن الكتابة عني تحثّ الآخرين على أن ينظروا إلي بإشفاق ، وأنا لا أطلب الشفقة ، ولا الرحمة من أحد . لأنهم هم أرادوا أن أشيخ كما شاخوا . ليقولوا لأحفادهم أن عمر النهر عمرنا .
بمجرد أن قارنوا حماقتهم بي . أخذت أنضب مائي .....
أردّ غاضباً : لماذا تبكي ؟ ألست رجلاً قوياً تخيف كلَّ مَنْ يمرّ بك بإمكانك أن تسحب أيَّ أحد من رجله ، وتوقعه فيك .
يقول النهر بحزنٍ : لم أعد أستطيع .... لم تعد لي القدرة .... الآن فقط قتلتني .. اذهب من هنا .
ثم أدرت له ظهري لئلاّ أرى جبنَه.وقلت له بصوتٍ نهريٍّ جارف : أنت جبان . فردّ علي النهر بصوتٍ متقطع : أ .. ن .. ت .. ج .. ب .. ا ... ن . أدرت له وجهاً سريعاً لأفهم منه عن صوته ... صوتي الذي تهجّى . أرعبني الذي ردّد صوتي . لم يكن النهر ، كانت الحصى وبقايا رمالٍ ، ومساحةٌ متقلصة جافة تدخل لوناً ترابياً جافاً إلى العيون . ولأني قتلته - أنا الذي اتهمت نفسي بقتله – كنتُ أريد أن يقتلني أيضاً بالطريقة التي أريدها : أن يجعلني سيلاً مجمّداً . فها أنا وحيد هنا ، أخاف أن أعود الى المدينة : منكّساً و متهماً .

هامش النهر :

لكن من بنى النهر ، الفاصل ، بالأصح من حفره بدايةً ؟ من رآه عندما كان بالمجرور أشبه بدايةً – كما هو الآن – لو كنت أملك خيالاً . وسوف أملكه الآن مؤقتاً لقلتُ : أنَّ أفعى ضخمة شرسةً ملّت من حياتها حيث تسكن في الشمال . انحدرت بغضبٍ مارةً من هنا . فكان لأثرها مجرور من ترابٍ ناعمٍ . ولأن شتاءاً هدّاراً مرّ عليه ، تكّفل مطره أن يوسّع النهر ، ليعطيه حجمه غير الطبيعي .

منـزل الشيخ

حتـى إن الشـارع الـذي يسكن فيـه منـزله يعرف باسم ((شـارع الشيخ عفيف)) .و بإمكـان أيّ أحد أنٍ يجرّب ،أن يضيّع نفسه ، و يتوّهها في أيّ شارع يشاء ، ويسأل أياً يشاء . فسوف يدلّه على هذا الشارع ، على هذا المنـزل .ولو أن اسم الشارع ((طارق بن زياد)) .وأنا نفسي لم أكن أعرف اسمه إلا لاحقاً .ولو أني عشتُ فيه . أعيش فيه أكثر من ثلاثين عاماً .

خير لمن يعرف منـزل الشيخ .ولم يدخله . فلو دخله ((وقد دخله كثيرون جداً)) فسوف تواجهه دهاليز صغيرة ، وضيّقة . لو أبعد كتفه اليمنى لئلا ترتطم بالجدار الترابيّ . فسوف لن يرى إلا و كتفه اليسرى متربة . كلّ المنـزل غرف : من اليسار غرفة الشيخ ((وكم وددت أن تكون لـي غرفة مثلها ، أمارس فيها عمري : قراءة وكتابةً وتـأمّلاً . مثل هذه الغرفة تطوّل العمر ، العمر الذي يجب أن تكون ملكيته للقراءة والكتابة والتأمّل فحسب)). وكم أقدس هذا المكان . لأن الشيخ أمضى عمره فيها . في هذه الغرفة قصم الشيخ نزاعاتٍ بين جماعاتٍ وأفراد كادت أن تفضي بينهما إلى القتل .وما كان بإمكان أحدٍ ((أيّ أحد)) أن يسوّي بينهما .في هذه الغرفة سرير قديم مقطّع على الأغلب ، مرتّب بشكل فوضويً يلفت النظر بمجرّد الدخول إليها .

لا....هذه الغرفة ما كان عليها ((يجب)) أن تعيش في هذا القرن . كان يجب أن تعيش في عصر الخلفاء. لأنها الشاهد والشهيد . ففيها خاصية أناس . هذه الخاصية حفظتها جدران الغرفة ، ومكتبها وبابها وأوراقها .لو فتحت كتاباً ما ((أي كتابٍ)) سوف تفاجأ بآلام ، وإحباطات من زار هذه الغرفة. كل الكتب دوّنت ما قيل للشيخ منذ أربعين سنة . ولذلك فأيّ كتاب في الغرفة كتاب لا ينتهي : أتراحاً وأفراحاً وآمالاً مستحيلةً .

من هذه الغرفة ، وفيها وزّعت حمّى القراءة على أبناء الشيخ الثلاثة قراءة ما يقوم اللسان ، ما يجعله أقلّ خطأ . ما يجعله – أقلّ ما يقال – يؤمن بتعدد الحياة و جمالها ، وأفكارها ، وبشاعة الحياة على البعض ما هم ليسوا أهلاً لها . لكنها التصقت بهم كاللعنة ..كالجلد . وعلى البعض أيضاً ما هم أهل لها . لكنها أبعدت عنهم وبصمت أيضاً .

كانت الغرفة – فيما مضى – تطلّ على الشارع .كاد أن ينهدّ ويتداعى جدارها الشرقي لولا عمودان ضخمان من التراب أسنداه .

إنها الشهيد : أما كان لها أن تتأنق . وما كان بوسع صاحبها ذلك أما كان لها أن تتوسع لئلا تتراكم الكتب على بعضها . ويطفح الغبار عليها . وما كان بوسع أبناء صاحبها ذلك .

وما من أحدٍ يدّعي الجلد والقسوة والصلابه أن يعيش فيها يوماً واحداً

إنها الحياة توهب النسيان وقساوته ، وقصده .إنه الجبنُ ذاته حين نلصق تهم الدنيا على الحياة ونرجع الذنب الوحيد إليها ، وبالصدفة التي جمعت ضدّين في مكان واحدٍ .

لكن إن أردنا الصدق والشجاعة نقول غاضبين :

لا ....ليست الحياة هكذا .

غرفته كالحياة لا تنتهي .

وجه نقيض

أماكان لها أن تستقرّ في أي مكان إلا ها هنا . فكم ودّ ألا يكون لها وجود ليس في حياته وكفى . ودّ أن تنوجد في أرضٍ لن يستطيعها ، لن يستطيع أن يفكّر ليتخطّاها .
لكن لا يستطيع ما يريده هو منها : فيتألّمها .
ما عليه أن يلتفت إلى شارع بيتها : عندما لا تكون أمام الباب تنتظره .
ما عليه ألا يلتفت إلى شارع بيتها : عندما تكون أمام الباب
تنتظره
وجه لن يكون الأخير : كي تستمرّ الحياة .

شـــيـخ عفيف

- إنه لا ينتهي –

إنه ليس كتاباً صعباً حتى لا ينتهي : تفكّك رموزه و دلالات معانيه . إن رأيته مرّة في الحياة -صدفةً – فسوف يرافقك طويلاً في الحياة . إنه كما الكثير : أسماؤهم تدلّ عليهم : أخلاقاً وسلوكاً فاسمه علامة عليه . وقد تبرّك باسمه كثيرون ، حين أسموا أبناءهم باسمه ، محبّة به ، وبمصادقته ، وبسلوكه . وقد ردّ عليهم الشيخ جميلهم : أعطاهم أعزّ ، و أبهى ما يملكه : أعطاهم عمره .
كأنه كتاب بمقدورك أن تؤجّله يوماً ...ثلاثة ...شهراً . لكن ليس بمقدورك أن تهمله أو تنظر إليه كما تمرّ برجل يعيش على سطح الحياة .
الحياة وحدها كفيلة لتكون قيّماً ، لتجعله روحها المتوثبة الخلاقة ولتؤكد أن الحياة ما كانت تسمّى لولا وجوده العنيف فيها

ما أجمل الحياة

فليكن الشيخ كما هو : يعامل من قبل البعض ، لا كما يحسّ ، ويعاني . لا كما يملك فقها وبلاغة لكن الحياة برهنت – لم تبرهن بعد – أن هذا البعض هم الذين يقبّحون الحياة ، و يقزمونها .

ما أقسى الحياة

و لأجل هذا ، فإحساسه بالأشياء والقراءة و الكلام و الألوان و الأشخاص و الأماكن ((الأماكن القريبة بمتناول البصر و اليد)) مختلف إلى درجة أنك تحسّ بهذه العلامات للمرّة الأولى . وكأنك تراها للمرة الأولى حين يتحدّث عنها هذا الشيخ حين يدلّك عليها . فعنده ، ليس لهذه العلامات بعد ، أحاديّ ، بليد .بل فيها أثنية قابلة للقراءة و الكلام عنها من جديد . وكلّ هامشي في الكلام و الأمكنة يحتاج إلى عوالم و قراءة مناهضة لم نحسّ بها نحن . لم نعاينها ، من عاشره فترةً زمنية قصيرةً ، سوف لن يرى إلا و نظرته و كلامه عن كل شيء تفضي به إلى مسار أكثر عمقاً وبعداً .
من أين له هذا البعد الاجتماعي و الثقافي و النفسي ؟ وبما حوله ؟
لم يستشار بهذه الكثافة ؟ يستشيره لا الأقربون منه وكفى . بل الأبعدون جداً عنه .
ولم يأخذ برأيه هو فقط ؟.
ألم يطرح أحدهم على نفسه هذه السؤال ؟ وليكن هذا السائل صديقاً له أو غريباً عن المدينة ، دلّه البعض على الشيخ . وسوف لن يكون – لأي كان ومن كان ((أجزم بذلك)) جواب وافٍ عن هذا الموضوع .
ربما يكون عندي بعض جواب أو خيال جواب ، هو أن الشيخ –الآن–لا يرى أي شيءٍ إلا إذا قرّب المنظور إلى عينيه . إلا إذ اقترب هو منه اقتراباً شديداً حتى يرى ما لا يُرى ولو من بعيد . ما هو أمرّ : أن الشيخ مازال يقرأ . لكن بطريقةٍ غريبة : يضع مجهراً على الصفحة المقروءة حتى ترى عيناه ما هو مدوّن فيها .
أتذكره.....
سوف أتذكّره الآن : قبل عشرين سنة . كنتُ أفيق ليلاً ،أو بعد منتصف الليل ، فأرى ضوء غرفته مشتعلاً ...شحيحاً ((وسوف لن يكون ضوءاً باهراً)) وسوف اقترب من غرفته .
وأقول ((غرفته)) جدلاً ليس إلا . لأنها ليست غرفة ولو بالمعنى الضيّق أيضاً . أتلصّص عليه من درفة الباب ، أو ثقب المفتاح . وسوف أفاجأ بالكتاب بين يديه ، وعيناه لا تفارق سطور الكتاب . وأحياناً كنتُ أراه بهذه الوضعية ، وهو نائم ((وضعية مقدّسة بالنسبة لي أن أرى امرئاً نائماً ، والكتاب بين يديه ، أو على ركبتيه)) وبعد أن وعيت ، وأدركت ، سألت عنه مستفسراً ...مستوضحاً عن حالته القرائية هذه وتلك . فوجئت بالجواب : أمضى حياته كلها هكذا .فليكن للشيخ أعداء . أتخيل الشيخ – ليس وحده

–من أباح العلم -خاصة النحو والصرف و العروض والفقه ليكون بمتناول الجميع . وسوف لن يعرف حقه الحقيقي ، إلا إذا غاب . لم أعرف حياةً جبارةً وقاتلة كمثل هذه الحياة التي تلقي بقساوتها ، وقصديتها لا مرارتها وبؤسها فقط على مثل هذا الجليل الذي تسوّى بين يديه أدهى ، أعقد المشاكل . وهو الذي يعاني منها : أهلاً وأبناءً ورؤيةً وقراءة وكتابة . لم أعرف إنساناً تحمّل كلّ هذا . حمل عليه ما يطيق ، وما لا يطيق . إلا إذا وجد إنسان يملك خمسين رجلاً بداخله . ولو أني أدرك أن هذا الرجل الكثير... الخمسين لا يحتمل .
ولهذا حين ترى الشيخ – وهو سبعيني – تعطيه عمراً أضعاف ما هو عليه .
فلتحّمل أعباء الحياة والناس عليه . ولتكن الحياة مشعّة ، باهرةً . وليكن الناس مترفين .. ضاحكين ((وكان عليهم أن يبكوا)) .
إنه كتاب تنتهي من قراءته لتبدأ بقراءته من جديد . هكذا أتخيل الشيخ . ولو أني أوكد ولا أتخيل أو أحسّ.
هل في الحياة مثله ؟

طريق مقبرة عامودا

1929- 1960 - الآن

اتراها للمرة الألف ، وكأنك تراها غريبة عنك ، وغامضة .
خاصةً من ينظر إليها بعينين مغسولتين . من يريد أن يتعرّف عليها من جديدٍ، على أشكال دفناها . على أمواتها . كل قبر لا يشبه قبراً آخر . فهذه الفوضى فيها . ما ميّزها عن المقابر التي رأيتها – أو هكذا خيّل إليّ – تتوسّع من الجهات الأربع بعشوائية ممضّة . لا تفسير لهذا التوسع . وهذه العشوائية إلا عشوائية الموت التي تختار ما تريده من الأحياء ليكون ضيفاً أبدياً تحت ترابها المغبرّ الرقيق صيفاً . الموحل إلى درجة أنك لن تصل إلى المقبرة -حتى وإن مشيت باتجاهها أميالاً – وأنت تريدها في الشتاء خاصةً .
ما عظّم المقبرة في العيون ، وأدخل الرعب في الأرواح هو أنها اختارت الأموات سواسيةً . فقبر الذي كان ذات يومٍ يدخل عليه بإذن ، وبمراسيم خاصة به يجاور ، يلاصق قبر الذي كان ذات يومٍ يؤذن له ((وربما ..لا))بالدخول و بالمراسم .

ما عظمها . أو أنك تشاء مت من الحياة ، وشتمتك ، وانتبذت ((المكان بالمكين)) فسوف لن ترى إلا ووجهتك تدلّك على المقبرة . تجلس فوق قبر ما . ورأسك منكّس ككرةٍ بين يديك .
وحدك ، كنت وحدك قبل سبعين عاماً ، من أحياك ؟ ولماذا فرشت هذه الأرض كلها بقبور فوضوية . أفي كل قبر ميّت فعلاً ؟ أهذه القبور كلها لي ؟ لكن لي قبر واحد.
و ها أنا أجلس عليه ... أتلمسّه ... أحسّه . لست حالماً ولا متطيّراً . كنت أتلذذ تحت التراب . حتى أنه ضيّق علي روحي وكياني الذي أخرجني لأتنفّس . لكن الحياة لا تغريني ولو بالنظرة العجلى إليها . فلأجرّبها ثانية :
كان شرمولا قريباً من قبري .من أراد الصعود عليه فعن طريق الغرب . حيث الصعود سهل ، منحدر ترابي خفيف . وقمته لا ترى ، إلا إذا رفعت رأسك إلى السماء . من أبعد شرمولا عني ؟ إنه يرى كشبح أخذ ينقرض . ولو نظرت إليه بتمعّن فلن تراه وآهٍ لو كنت حياً، لحاسبت كل يد عبثت بترابه . لحاسبتهم بطريقة غريبة . لاستدرجتهم إليه لأدفعهم من فوق التلّ . كان شرمولا جاري ، أنيسي الوحيد الأوحد في هذه الدنيا التي لا تملك قوة لتجعل قبر مسلم لصق قبر مسيحي إلا ها هنا .
كنت أملّ من قبري الضيّق . قبري يملّ منّي . فاستدركت الأمر بسهولة : حفرت نفقاً لولبياً تحت الأرض يوصلني إلى أيّ قبر قريب مني . مجرّد أن رآني هلّل صاحبه بقدومي الصاخب .
كنا نسهر حتى الصباح : ضاحكين ... مسرورين . وحين عودتي كنت أشرب ماءً من البئر التي حفرت وقفاً على أرواح شهداء حريف سينما عامودا . تلك البئر نفسها التي أراها الآن يتيمة . تقترب لترى ما مستوى مائها الآن . سوف تفاجأ بأن صدى صوتك يعود إليك متقطعاً ... كئيباً لما فيه وبه من بؤس وجفاف . حتى أن الشجرة التي كانت تظلّل البئر لم يبق فيها إلا جذع بائس بإمكانك أن تفتته بأصابعك يا اله....ي : قبل سنوات قليلة كان ماء هذه البئر ساحراً .بإمكانك أن تمدّ يديك إليه فيتعلّق الماء بهما . تروى بشربةٍ من كفّك . الآن فقط وقر في نفسي ما كان يفعله ((معتوه))في الصيف الملتهب ، يغسل ، يتحمّم بطريقة لا يفكّر بها أحد : يقطع هذه المسافة ((من سوق المدينة)) الطويلة . وقطعة من الصابون بيده ((لا بجيبه))ليغتسل بماء هذه البئر . لأن ماءها الوحيد يزيل أثام البشر العالقة بثيابه وجلده . هل لي أن أقول : إن ذاك المعتوه وحده المدرك حين يغسل الأثام التي التصقت به من كلام أن أناسٍ باستطاعتهم أن يخرّبوا الروح ، ويحرّفوا لا الكلام فقط .
لو عين حارس على المقبرة ، لما سمح نفسه ، لمنعه الحارس .
لكن قد يزور المقبرة – ما عدا جهة الشمال – شخص اشتاق إلى أحدٍ ما ميت ، قريب له ، صديق عمره.

وعين في الفترة الأخيرة حارس ، عينه لا تخطئه في معرفة القبور – حتى القبور التي لا شواهد لها – يغمض عينيه . ويدلك على أيّ قبر تريد قراءة الفاتحة عليه .

هذا الحارس مات

وكان لموته خسارة . إذا كان بعضهم يزورونه في غرفته الوحيدة القريبة من القبرة باتجاه الشمال . يقال بأنه في ليلةٍ شتائية هدارة . هاجمته الأشباح قادمة من المقبرة بثياب بيضاء . بعد مهاجمة الأشباح عليه . بقي أسبوعاً يهذي .وعينه لا تفارق المقبرة .

هذا الحارس الأحدب مات .

ولكن أحاديثه تتناول حتى الآن . فقد كنت من مستمعيه لا لأصدّق ما يرويه . بل أعجب بخياله الخلاق . يتحدّث عن الموتى وكأنه يتحدّث عن الأحياء وكيف أنهم يقومون من قبورهم ليلاً : يتسامرون بثيابهم البيضاء . كلّ واحد منهم يجلس على شاهدة قبره ليتحدّث مع الآخر . يعرف البعض منهم البعض الآخر لصداقةٍ بينهما قديمة في الحياة . وقد رأى و أكد أن اثنين من الموتى يتمشوران في منتصف المقبرة .كمن يتمشوران في حديقة غناء ... ضاحكين ... مندمجين في الحديث . وقد كانا في الحياة أيضاً صديقين .
عين هذا الحارس بعدما داهم الشذاذ و شريبو الكأس على ضريح وليّ . يحلف به ، وبقبره . وبعدما شربوا في ضريح الولي . كسروا ما معهم من زجاجات فارغة .
آنذاك ضجت عامودا بهذا النبأ المخجل :

لم تكن المقبرة – كانت المقبرة –
ملجأ لرصد المدينة من بعيد – يراقب الطريق حفار القبور .
يريد أن يموت أي كان . من كان . يحدّد هذا الحفار المكان للميت قبل أن يموت .
إن لم يمت أحد في يومٍ ما . فهذا اليوم لا يحسب من أيامه . لا يعترف به . إذ ذكر- ذكره - تذكّره . فباللعنة عليه . يريد أن يموت هو . يريد أن يموّت نفسه في ذاك اليوم غير المعلوم . إن كان الميت بائساً . ويعرف ذلك من مشيعيه : هيئاتهم ، تقوس ظهورهم ، سعالهم . لا يسمع غير سعالهم .
فله قبر يحفر على عجل ، وعلى مضضٍ ، وكأنه حفر با كراهٍ .
فليكن القبر ضيّقاً ، معتماً ، قبيحاً ، صامتاً كضيق وعتمة وقبح وصمت الحياة .
فليمت هذا الميت آلاف المرات . فلن يبكي ويحزن ويحس به أحد ولن يسمي أحد حفيده ولا ولده باسمه .
وإن كان الميّت مترفاً . ويعرف ذلك من مشيعيه : هيئاتهم البرّاقة ، سحنتهم الحزينة المتكلّفة ، صمتهم العميق . فله قبر يحفر بإتقان وجمال أخّاذ وكأنه حفر ليكون قبراً للحفار الذي أبدع بحفره وتسويته ليكون هذا القبر مشعّاً يرتاح الميّت فيه . ليكون هذا القبر واسعاً ، ليكون مضافةً يزورها النبلاء مقهقهين ... منكّتين ببذاءة تغيظ جاره الميّت. فليكن القبر له -كما الحياة – ولتكن المقبرة كلها له .
حين مات . بكي وحزن وترحّم عليه ، وأحس به كل أحد .
وسمّي باسمه كل مولود . وسوف يؤرّخ موته –قبله وبعده .

متن الجامع و الطريق
1960 - 1929

مرّ عليَّ اثنان وسبعون عاماً اجترّ التراب ، وأحسّ بفظاظة الأرجل على الأرض .حتى أن الميت كان يئنّ حين تطأ على قبره قدوم أحدهم . ما ميّز الأرض من القبر الذي بالأرض أشبه. أكثر ما يخيف ((أيام الخميس والأعياد : الصغير والكبير)) حين تشنّ الأقدام حرباً على القبور . تنفد منها القبور الاسمنتية التي جمّلها أهاليها وزخرفوها بألوان تنفر الناظر إليها . وكانوا قد زيّنوها وبهر جوها لتدخل البهجة والسرور إلى العيون .

- الحصان الذي جنّ ، الذي أفلت خطأ من الشمال . سوف يعدو باتجاه المقبرة بهمجيّة محطّماً ما يعترضه . ما يعترضه في الطريق . لكن سوف يتجمّد بصلابةٍ أمام المقبرة . وكأن جداراً حديدياً اعترض بينه وبين المقبرة .

كان علي أن أقيس المسافة التي تنطلق من منتصف عامودا . منتصفها ((الجامع الكبير)) : العلام بكلّ ما مرّ على عامودا من أتراح . وبقي شاهداً كالطود لا يزحزح . لا يعطي أية معلومة لأحدٍ :من كان . ومهما كان .خبّأ أسراره و أسرار مدينة كاملة .لو فتّت حجره ، أيّ حجر منه . فسوف يعطيك تاريخاً بأكمله . يمتلك ذاكرةً لا تنسيها كلّ مصائب الدنيا . حفظتها كلّ أحجاره حتى أن بعض أحجار الجامع امتصّت الآثام والخطايا . ولأنها امتصتها ألوانها البيض . عوّضتها بلون أسود متفحّم . كست الأحجار هذه الألوان لئلا تعطي أسرارها بيسرٍ ، لمن أرادها . أراد هذه الأحجار البليغة . لكن ببلاغة قادرة على الصمت الأبدي . بعض هذه الأحجار تشرّبتها الآثام والخطايا فاسودّت بسواد الدنيا حتى انك لا تستطيع أن تتأمّلها طويلاً .

خوف
أن
تنفجر بك .

في بعض الأحجار أسرار تفضح البعض على ما قاموا به لا في الجامع بل في المدينة. بقي الجامع شاهداً و شهيداً كالمدينة على أفراحٍ و أتراح . وكم مرّ عليها أقوام غرباء . وآخرون لهم علاقة وطيدة بها . وطّدوها لتكون لهم فقط . وكلّ من يأتيها ليسوا إلا عابرين بها ، أو حاجين ، أو قبض ريح . ولن يلبثوا فيها يوماً أو بعض يوم ، لكن . لبثوا فيها ثلاث مئة سنين عدداً . وهكذا خيّل إليّ 0 حين أعطيت لعشر سنوات مئة سنة لأن وجودهم ثقيل ، وكاتم للنفس : لغةً وعاداتٍ وألفةً . وآخرون لا علاقة لهم بالمدينة ولا بأهلها . كلٌّ هؤلاء . لهم بصماتهم التي لا تُنسى . ولو كانت سيئة – هكذا ظُنَّ – البعض من الأهالي تفرّقوا . بل الأصح تشتتوا ، شتتهم الدنيا . لكن هذه الأحجار – بقيت موّارةً بذكراهم . وكان بودهم أن يُنسوا . وقد نسيهم الزمن الذي وحده قادر على الاحتفاظ بالفرح والترح .
هل جرّبت مرةً في ساحة الجامع أن يستوقفك حجرٌ ما .

أن
تقف
أمام
حجر ما

كي يفصح لك ، يحدّثك عنك ، عن نفسك . سوف لن تتحمّل – انت المعني – انت ما قمت به من أثام . وسوف تُسكت الحجر بهروبك . وسوف يضيف هذا الحجر إلى صفحتك ، صفة أكثر لعنةً : **الهروب** .

من هذه الأحجار ، بُنى جدار على عجل ، وسوّر منها خزان ماء في ساحة الجامع . وسكن بين هذه الأحجار رجلٌ أوتي بنفسه إلى هذه المناطق ، ليستقرّ أخيراً هنا : ليتنسّك ، ليجنّ . في هامش الجامع ، أي جامع قديم ، رجل محجور عليه . مجنون، معتوه ، مهبول . أو مَنْ يدّعي هذه الصفات الثلاث : يلبس هيئتهم ، ويقلّد نبرة صوتهم . ألا يحقّ لي أنْ أقول : إن الحياة تفرض صفةً قبيحةً ، فندّعيها ، ونلبسها ، وربّما نتفاخر بها أيضاً .
تقف باجلال . وتأخذك الرهبة المهيبة في ساحة الجامع . عندما تعلم أن أشلاء ضحايا حريق سينما عامودا تُركوا فيها . ليتعرّف عليها أهاليها . حتى أنّ تلك البقعة الأرضية الأسمنتية حالياً . والتي رميت فيها – نعم رميت – تلك الأشلاء بقيت – ولسنواتٍ طوال – تنبعث منها رائحة الشواء نفسه . وقد أرفدني بهذه المعلومة " علاّمة جليل " . كانت الأشلاء تحمّل على عربة خشبية ذات دولابين كبيرين . يُتّجه بها إلى الجامع . وقد تسقط من فوق الأشلاء أعضاء " يد.... رجل ..... جمجمة ... أصابع بشرية" .
سيرة الجامع تاريخ غير مدوّن ، تخرج منه لترى العالم أكثر فجاجةً وخواءً : سلوكاً وحياة . شارع " سعد الله الجابري " . ويعرف حتى الآن باسم حفظناه منذ الطفولة " شارع الجامع الكبير " من هذا الشارع ، الطريق . وهو متعرّج ، بشكل لافت . مثله ليس كمثل أي شارع آخر مستوٍ . كان تتدفع فيه أحصنة قادمة من الشمال :((من كروم دربو))أفلتت من عقالها . اندفاعاً لو وقع بين أرجلها أي شيءٍ فسوف يسوّى بالأرض تماماً . الطريق نفسه . منذ أن وعيته ومشيت عليه . غير أنه زقت ليعطيك رمزاً نفسياً متشائماً . نفسه حين يضجّ –كان يضجّ –صباح العيد ببشر ذوي عاهاتٍ ((مؤقتة)) يفرشون الطريق – وعلى جانبيه تحديداً – بما تيسّر من لثامٍ أو خرقة أو كيس.
وربما كان بين هؤلاء من نعرفهم جيداً .
ربما كان بينهم جار لنا . ولأن أمره سوف ينكشف لو لم يلثم وجهه
هذا الطريق ينطلق بعنف من أمام باب المسجد : ملتوياً ..صعوداً ... هبوطاً إلى أن تنتهي إلى المقبرة . ولن تحسّ بنفس الحالة المدونة أعلاه حين تنظر من المقبرة إلى الطريق .
لو خلته بساطاً يجلسون عليه ، وجررته من تحتهم . فسوف تلقي بهم على الأرض .
ما أتذكّره . كان كما روي أعلاه : ما أراه الآن.وفي العيد أيضاً : لكنه يبدو خاوياً ... وجباناً يستحقّ الشفقة . تقطع هذا الطريق بسهولةٍ . ولن تحسّ بأي جمال فيه . ولا بأي زمن استهلكته حتى وصلت إلى المقبرة . كان سابقاً يلزمك زمن غير هذا الزمن المؤقت المملّ حتى تنتهي من عوالم فارشي الأرض بالخرق والأكياس : تملأ فوقها سكاكر ملوّنة .ولأن دبقها طاف بفعل حرارة ما . بفعل رذاذ ما .فقد التصقت بالخرق والأكياس .
في كل الأعياد السابقة : كنت أتساءل : من أين أتى كل هؤلاء البشر الفقراء ؟ وفي كل الأعياد الحالية أتساءل : أين كل أولئك البشر الفقراء ؟ هل مات كلهم ، ودفعةً واحدة .؟
أين أحلامهم ؟ ألم يورثوا أبناءاً أو أحفاداً ليمتهنوا ما كان أسلافهم يمتهنون ؟
ولأني أفيق صباح يوم العيد باكراً ، لأرى المشهد الحميم ذاك . الغائب .أفيق الآن أيضاً **أنا وجولان** . وسوف يدلني هذا الصديق إلى أماكن شردت عنها . وربما أضيّعه في الطريق ، أو يضيعني أو يضيعنا الطريق ببشره المتموّج ، بكلامهم الصاخب إلى درجة أننا لن نسمع أي كلام سوى أننا نرى شفاها . لا تحصى – تتحرّك . نقيق الآن . لكن كي لا نرى الفقراء وقد احتلّوا جانبي الطريق . لكن لنستمع إلى غيابهم ومكانهم البليغ بغيابهم ، لنترجم حالاتهم النادرة تلك .
وسوف أطلب من العمر الآن أن يعيد نفسه إلى عشرين سنة خلت كي أرى تلك الحالة : ساعةً .... لا لحظةً . وسوف أطلب من العمر – وأترجاه الآن- أن يبقى أبداً في عشرين سنة خلت .

رنين الطرق

لا قيمة تذكر لأي طريق كان ،وأينما كان . فهو طريق مجرد ، لا روح فيه ما لم يعرف بشخص ، ما لم يسكن أو يبني فيه أحد مسكناً له . ما لم يمش فيه أحد ... بعده سوف يمر فيه كثيرون وتبنى عليه منازل كثيرة . وربما تمرّ عليه أحداث هامة أيضاً . هكذا يقال عن مدينة عامودا حيث مرّ بها شخص ، فأعجبه هذا العراء المخيف . فبنى فيها منزلاً . ثم تكاثر هذا المنزل ليعطينا ((هذه العامودا)) التي نعيش فيها . لنجمّلها نحن بوجودنا فيها . ثم فرّعت و دمّرت و بنيت لنسكنها نحن فتجمّلت هي بوجودها فينا
الحياة كلّها طريق ، بالأصحّ طرق بعدد من يمشي عليها ، ويعيش على سطح الحياة . فكما أن ثمّة طريقاً صعباً ((وكأنه ملغوم)) ومستحيلاً على البعض . فثمة ها هنا طريق مباح . للمكان طريق سهل ، فيصعب أحياناً على المرء ، أو يستحيل . وللمكان طريق صعب ، فيسهل أحياناً على المرء . ويمحى بمجرد تكرار المشي عليه
قد لااعرف طرقاً كثيرة سهلة المرور فيها.لكن قدميَّ عوّدت نفسها لأن تقودني إلى طرق للشعر خصوصا . والشعر كان يعيش عندي وبجانبي وحولي . منذ ان وعت نفسي نفسها ، فالطريق إليها أضاف إلي طرقا سهّلت صعبه أو مستحيله . حيث ثمّة طريق علّم الكثيرين المرور فيه . وفيما بعد وقر في نفسي ان معرفة هؤلاء الكثيرين كانت من هنا: ثمة شيخٌ يقابلك بثياب فوضوية وبجسم لا تراه لنحوله ، إلا إذا خاطبك ، وكأنّه يذوب بثيابه . لكنّك تراه عملاقاً . مليئاً بمعرفة أسرار الشعر يميّز صحيحه من سقيمه بمجرد أن تتلى امامه كلمتان او ثلاث من شعرٍ ما ، حتى تعرف سرّه . ثم تعرف انت سرّ هذا النوع من الشعر وسر هذا النوع من الشيوخ .حيث لم يتدرّع هذا الشيخ بلباس تقيٍّ..ورعٍ ، ليملأ عينك وليضطرَّ ويهمّ المرء بتقبيل يده . غير أن هذا الشيخ أنجب او ساهم في إنجاب أدقّ أنواع الشعر عندنا. خاصة طريقة معرفته بالشعر الصوفي وكان يكتبه في خلواته حين يتوحد مع ربه ويناجيه . وكانت هذه الأشعار تغنى عنده بطريقة صوفية خاصة بالتكايا تفضيك الى عوالم مكة وشعابها لكنها كانت تدون هنا ويتغنى بها هنا ويترنم مَنْ يجاوره الى درجة أن أطفال حارتنا الصغار حفظو تلك الترنيمات والأشعار المغناة . وباتوا يرددونها حتى الآن رغم مرور أكثر من عشر سنوات عجاف عليها. وهذا يعني لي ان تلك القصائد ما كان لها أن تكرّر وتحفظ وتغنّى بطريقتها الصوفية البدائية ، لو لم تزلزل روح اطفال حارتنا الذين عرفوا اكثر ما عرفوا بذلك الشيخ الذي بات يوقع اسمه بأسمائهم ويوقعون أسمائهم باسم الشيخ عفيف الذي فجّر الشارع بالشعر . وثمّة شيخ آخر فجّر الشوارع بالشعر . ويربط هذا الشيخ رباط عائلي بالشيخ السابق وهو الشيخ صدري حتّى انّ بعض الشعراء عندنا تلقوا دروسهم الشعرية الأولى من خلال هذاالشيخ الذي ما ارتاح لحظة في حياته إلا وهو يردّد اشعاراً لصديقه وعزيزه (جكر خوين)لم يكن الشيخ صدري يلقن دروسا للشعر أو يعلّمه انما راحته تكمن في ان يتفاعل ويتسامى مع الشعر حين يتغنى به. فيأخذ عنه المارة أو من يملك حمّى الشعر بداخله ومن يعيش بالشعر وفيه . ومن الطرافة انّ لبس هذا الشيخ كسابقه : ثياب غير مفصّلة عليه ، أو أنها مفصّلة ودقيقة جداً لكنها لم تكن توحي إلا بالفوضى التي تعادي الأناقة والرسمية التي تحمل نفاقاً هائلاً. ثيابه كملائكة خضر تطير مع روحه. وبوفاته فقدت مدينتي (عامودا) شيخاً لايتكرر خياله ألا إذا شاهدنا مثله في مسلسل أو فيلم . و كانه ليس من طينتنا أو او كطينتنا . وسوف نتذكّره حين نتذكّر سكاكر بيضاء بطعم النعناع يزكم الأنوف . وكم يحلو لي لن أشبّه سكاكره تلك بثيابه الخضراء . ولو ان لكل من الثياب والطعم عالما متناقضاً بينهما. ومع ذلك كم هما متآلفان حين نجلب سيره هذا الشيخ .
كاني فيما أدوّنه تلقيّت دروساً فيه . فطريق ثانوية ابي العلاء المعري . المعلم الأول أو المدشّن الاوّل لمعرفة و تمييز النفاق والدجل من الصدق . فالطريق ذاك مفرح و مغر . و لو أنه بعيد عن المدينة .حيث تقع هذه الثانوية في جهتها الغربية ؛ مغرورة بنفسها و مزهوة و كئيبة كآبة قاتلة . فكان الفرح يتشربنا , لنهرول بدل المشي لنصل اليها , لا لبعدها , أو لتاخرنا عن حصة ما , بل لنتلقى دروسا أو تعاليم باتت ثاوية فينا , و بعد مرور هذه السنوات , حيث الدروس المدرسية الجافة نفسها , تحديدا دروس اللغة العربية التي برع و أبدع فيها مدرس جميل الشكل والأسلوب والروح : جميل داري الذي كان يجمّل دروسا مقعّرة الى دروس تفيض حيوية: تخاطبنا و تحاورنا , ثم ينهي جميل داري دوره , و يعطي أمانته فوق ما يطيق , و مالا يطيق , ثم نحلل ما قاله المدرس رمزا , أو ما لم يقله . لكن طريقة

عصبيته في التنديد بالقبح الذي يلفّ حولنا : اجتماعيا و ثقافيا , وفي تحبيذه بالجمال الذي سوف ينقرض. وكان تنبؤه صائبا .
كان بامكان المدرس ذاك أن يزلزل كيانك و يجعلك أن تعشق فتاة ما بمجرد خروجك من الثانوية، لأنه شرح لك قصيدة غزلية لجميل بثينة . وبامكانه أن يجعلك سياسيا وطنيا بمجرد أن يشرح لك قصيدة لبدر شاكر السياب. هل لي أن أقول عنه الآن : بأنه أعطانا عمرا خليطا من كل ما هو جميل و بهي في الحياة . فها هي الثانوية كئيبة ووحيدة , ربما لبعدها عن المدينة ، أو ربما لأنها عالية البناء دون غيرها من المنازل الواطئة بجوارها , بعدما كانت تضجّ نشاطا من جميع المستويات , حيث طلابها الذين كان قد تملّكهم الشعر (و كأنّ المتنبي يعنيهم : كأنّ الرّيح تحتهم) , يهربون منها من خلال فتح نفق صغير تحت سورها الغربي , وكم يحلو أن أسمّي ذاك التسيّب نظاما ,لأنّا ما كنّا نهرب من حصة ما للهو أو العبث ، بل لنسمع لبعضنا نتاجنا الشعري , أو أن نقيم ما يشبه أمسية شعرية في الهواء الطلق , وكم يطيب أن أذكر صديقا لي , تعوّدت كثيرا أن ألتقي به خلف سور الثانوية، وان كان الفصل شتاء ماطرا و هدارا : محمد عبد الوهاب الحسيني الذي بات صحفيا معروفا فيما بعد.من المفاجأة أن ذاك النفق بقي لسنوات عدة كما هو , وكلما رأيته أحالني الى ما كنا نفعله قبل عشرين سنة : **نفق يقصف العمر**
خصوصا أننا كنا ننحني في تجاوزه لننطلق الى طريق آ خرله سحر آخر مضاعف , يجعلك متطيّرا و مطيّرا بك الى عالم من لحم و دم , عام يتحرك أمامك كأنك في مشهد سينمائي , يصرخ بوجهك أو يؤنّبك ان أخطأت و يحاول دائما أن يسدّد خطاك و يهديك الى التأمل و التحري , وربما يجعلك أن تصرخ بوجهه و تعنفه لكنك تصطدم : أنك في حضرة الورق المسودّ بالحبر , و ربما يثير أعصابك لرداء ة أفكاره , فتقطعه , و ربما تحرقه , وربما يثير أعصابك , لكن ، هذه المرة بعمق , فتحافظ عليه لأنه مليء بتغيير نفس بشرية مثقلة بالحمق والآثام , فتقرأ هذا الكتاب أو يجب أ ن تقرأه بهدوء , و تقلّب صفحاته هادئا خوف أن تقطع منه صفحة , وربما لا يعرف القارىء حالات الكتاب , و سطوته الاسطورية : لا تنتهي صفحاته , أن تنهي صفحته الأخيرة و كأنك تقرأ صفحته الأولى , فيكون القارئْ بحاجة الى آلاف القرون لينهي كتابا واحدا , و سوف ينتهي عمره و لا يصل الى الصفحة الأخيرة من الكتاب , و يبقى منه هيكل عظمي واهن , والكتاب على ركبتيه مقروء, و هنا ينتهي طريق القاريء ليستجدّ طريق الكتاب و دوره في قراءة و تحليل القاريء . و كم من طرق خطفت الكتاب لتجعله ممحيّا حبره لتداوله بين الأيدي , ليسهر معها يوما كاملا بالملاحظات و النقاش الصامت بينهما , لتقال في ندوات منازلنا التي لها في قلوبنا منازل , كلها أريحية , دمثة أخلاق أصحابها , و يستحيل وجودهم الآن في مدينتي , تلك المنازل فتحت أبوابها و روحها احتراما لحضور الكتاب الجارف، و ليقينها أن لا أحد يملأ مكان الكتاب الا الكتاب ، خصوصا ذاك الكتاب الذي يغيّر قارئه ليضجّ الحياة فيه ، ليسمو بنا لنكون به و فيه في مسار أكثر عمقا : غيرين ، و أنّ كلّ شيء ملك للكلّ ، ومن يرى خلاف ذلك واهم ، و يجب أن يطرد من كل مجتمع مهذّب ، ، و ألا يحلم أن يحضر تلك الندوات المنزلية التي ساهمت في خلق حالة ثقافية موارة ، تلك المنازل التي مازالت جدرانها تحمل تاريخا للأفكار التي قيلت قبل عشرين سنة – المنازل التي وقعت باسم (**محمود جانكير**) الذي ترك منزليه – ومازالا مباحين – لتدار فيهما نوعية الكتب تلك نقاشا و حوارا . خاصة تلك الكتب لكتاب سوريين باتوا مضيئين على مستوى العالم العربي ، أو على مستوى عتمة العالم : دمشق الحرائق ، الياطر ، وليمة لأعشاب االبحر، غرفة بملايين الجدران . التي مازال رنينها يعيش معي ، و يسمعني بتلك العلامات و بضيوف أدمنوا مدينتي : ابراهيم اليوسف و طه خليل وابراهيم محمود الذي عرفت طرقه ، لا من خلاله ، بل من خلال كتابه الذي – يجعلك – جعلني أن ألتفت ال] لأقو] طرقي ، و ليكون معي طريقا آخر، وجها آخر ، ولو أنه ليس وجها من عامودا ، بل هو كتاب يتحدث عن ايقاعات القامشلي ، ذاك طريق ، وجه قامشلي حاورني لأن ما فيه صلة قرابة اجتماعية و ثقافية بين مدينتي و مدينته ، فكلما قرأت كتبه أو طرقه ازددت يقينا أن ما كتبه من مدينته هو سرد و تحليل لعامودا : نهرها و عاداتها و طرقها و وجوهها و مبغاها .
فعادات مدينتي هي عادات القامشلي التي منبتها و مولدها كانت من هنا ، فبامكان أي أحد من القامشلي أن يدل امرئا ضل من عامودا الى منزله ليتحدث معه في الطريق عن أبيه و حارته ، و ربما عن عشيقته ، لأنه مكانه .

طريق ايقاعات القامشلي دلتني على مدينتي التي قولتها : أمكنة ووجوها وعوالم فيها مبالغة واضحة بعدما كانت مهملة ومنسية عوضت المهمل والمنسي بالمبالغة و كان حقها أن تكون هكذا , وا، سئلت يوما عن كل ما فغلته أنا , سيكون جوابي الذي لا أملك غيره : اسألوا ابراهيم محمود المعني بالاجابة عني لأنه طرقه التي مشى عليها في القامشلي , وهذه التي تشبهها مشيت عليها أنا في عامودا التي عرفت طريقا ، صعب تذكره ، فان حاول واحد من الذين أدمنوه أن يتقوه به ، ربما يضع الأخر يده على فمه ليمنهه من التحدث , و لو أنه حاليا منقرض و مغلق قبل أكثر من خمسين عاما من قبل شيخ عرف بتقواه ، لأنه كان للدرك الفرنسي ، وربما حين يتلقى المبغى الشتائم الحالية ، وكأن الشتائم ضده لا للمبغى وكفى ، بل لمن بنوه : الاحتلال الفرنسي الذي لم ينعم وحده بالمبغى ، حيث كان الجنون يقيمون في طريق قريب منه ،القشلة المنقرضة الآن أيضا .

الأهم في سيرة المبغى هو أن البعض يتشنج من الحديث عنه ، و يرفض سيرته ويفند و يصغر وجوده ، و يحقره ، ويرفض أن يكون له وجود أصلا ، وهو نفسه الذي رآه و ربما دخله و تعرف على عالم المبغى والبغايا .

فكان المبغى الطريق المباح لمن أراد دخوله , لمن يقصد الجهة التي يرتاح فيها , و طالما تمناها , فان لم يدخل المبغى ذاك فسيخلق في داخله مبغى وهميا و بغايا أوهام ويستدرجهن الى أحلامه و أحلامه يقظته . فكأن وجود المبغى يتناسب ووجود شباب تستفزهم دواخلهم لمعرفة عالم غريب بحاجة الى كشف , وهم الغريبون عنه , فكان لا بد أن يقتحموه و يتنفسوه بأية طرق كانت , و مهما كانت صعبة و ماتوية , وما أن ينهي (**شغله**) عليه أن يغتسلأ , أن يبعد النجاسة عنه , فيغطس – مجرد غطس فحسب – في النهر القريب الذي كان كفيلا أن يبعد عنه آثام الدنيا , لم يكن على زبون المبغى أن يختار الطريق الأقرب ليوصله اليه خوف أن تراه عين متلصصة تبيح فضيحته , عليه أن يختار طريقا ليظن به أن له عملا ما في ذاك الطريق , و كأن الطريق ذاك ممنوع , و كأنه ملغوم برقابة داخلية . وان كان سالكه لا بد مار فيه لعمل هام يقضيه . حتى ذاك المار الاجباري كان يحس أن ذاهب الى المبغى لحرب العيون التي تترصد الطريق , تحسس المار ذاك أن العيون تلك تراقبه هو , و تتربص به ، لا بالطريق .

إن لحقت وعايشت طرقاً شتّى . لكن ثمّت طريق لم أعايشه في الصميم ولم احترق بالمشي عليه ولم تحترق قدمي في السير ، فقط لحقت احتضاره ، قبل أن تغيب عنه دون رجعة خطوات الشباب التي كانت قد ادمنته أو أحترقت عليه من كثرة المرور بخطوات بطيئة أشبه بالوقوف كما يخيير إلي الآن : أنَّ المارين واقفون عليه دون حراك . وقد سمي ذاك الطريق بـ(طريق الفرنسيين).

ألأنَّ الفرنسيين دشنوه ؟ أم لأن الفرنسيين أطلقوا عليه ذاك الاسم ؟

أم لأن الطرق الوحيد لهم ؟ الجواب عند غيري .

إنه أطول طريق في عامودا آنذاك. ويسمى الآن بشارع البلدية .

لكنك لو أحصيت الخطوات التي مرت عليه في السبعينيات خصوصا وبداية الثمانينيات لكنت بحاجة إلى آلاف السنين لعدّ تلك الخطى التي كانت للشباب حصة الأسد فيها ، حيث كانوا ينطلقون في وقت محدد : المساء . وفي فصل معين : الصيف . منطلقين من بداية الطريق أو من وسطه إلى مالا ينته . مستغرقين وقتاً طويلاً وكثيفا بالكلام والنقاش السياسي والأدبي أو حول امور تخص كل جماعة اتفقوا مسبقا للخروج قبيل المساء ليمتد إلى ساعات متأخرة من الليل، ثم تنفض كل الخطوات عنه وتبقى رنينها وروائحها لليوم التالي ، وليصبح خاليا وموحشا كما هو عليه الآن حيث تراه بعد المغرب خاويا وربما مخيفا لعدم وجود أحد فيه إلا ضوء خاقت عالٍ يوجع العين لنوره الأصفر الباهت الشحيح الذي يدخل إلى الروح الكآبة والتأهب لتأخذ طريقا غير هذا السقيم ، وتفضل بينك وبين نفسك أن تمشي وحيدا في طريق معتم وموحل ، أو أن تمشي في الصحراء ليلا ، مستمتعا بعواء الكلاب خير وأجدى من أن تنهب وقتك في هذا الطريق الذي بات لبعض المراهقين الذين تحمل هيآتهم بذائة وقبحا في الشكل والروح ، حاملين هواتف محمولة تلعنها حين باتت بأيدي هؤلاء ، ولابسين بناطيل وقمصانا جديدة ، لكنك تزبلها لميوعة شكلها وألوانها الفاقعة إن دلت على شيء فسوف تدل علىلا سلوكهم وثقافتهم،وربما تسمع واحدا من هؤلاء المراهقين يلقي نكتة سخيفة ، وفيتفجر الآخرون مهه ضحكا عاليا وطويلا واكثر ما يوتر الأعصاب أن النكات هذا يضحك أكثر من أصحابه ، ولو انك استمعت إلى آلاف النكت من ذلك النوع لما ابتسمت بينك وبين نفسك بل على العكس ربما تشعر بوجع روحي ن وسوف يتضاعف هذا الوجع

لأنك لاتستطيع ان تضع حدا لفوضاهم أو تمنعهم من الميوعة التي تعششت في كيانهم ن فتكتفي بأضعف الإيمان:**الصمت** .
إنني شاهد على مرحلتين في مدينتي عامودا . خصوصا حين اعاين الحالات هذه والمولقف تلك التي تضعنا أمام سؤال يفرض نفسه بشراسة هنا : إن القوى الإجتماعية والفكرية والثقافية من خلال نضالها الطويل قضت عمرها في مكافحة الجهل والتسطح:
سلوكا وأخلاقا ومعارف جمة ، وزرعت فينا بذور البهاء والجمال الروحي ، وها نحن نجني ثمارها : قبحا وفوضى وجهلا إلى درجة أننا لم نعد نبالي بالمثل الذي تعلمناه مدرسيا : من يزرع الشر فلن يحصد إلا الندامة. فنكتفي بسلاح الجبناء : **الصمت .**
لكن الصمت ضروري في طريق آخر , الصمت البليغ الذي يفضي بك للتمتع بالجماليات فيما حولك حيث تملأ عينك سهولا فسيحة تغريك أينما التفت : ورود و أزهار و أعشاب بكل أشكالها و أنواعها . وكأن الطبيعة تعطي لمن يعيش عليها أبهى ما تملك , تحديدا في الربيع - الذي كان قبل خمسة عشر عاما ، أو عشرين - عندما كان النهر جاريا , ومساحة جانبيه مدى رحب مضمخ بالاحمر والأصفر والأبيض و البنفسجي و الأزرق الى جانب لون العشب النامي حديثا : الأخضر الملائكي غير المألوف الذي يمنح المرء رمزا دينيا يتسامى معه , و يحبذه خلقة . انها عامودا آنذاك ، اانهم أهالي عامودا يحجون ربيعهم : شبابا و فتيات يلبسون ألوان الطبيعة تبركا بالطبيعة ، فيضيفون فصولا ربيعية على ربيعهم هذا ، ملائكة من الشباب و الفتيات يحتلون لون الطبيعة مختالين ، مزهوين، صامتين مستلذين بالألوان التي تمنعهم من التحدث ، غير النجوى فيما بينهم ، و بين ألوان تلك الزهور ، أليس الاستماع بصمت الى الصمت بليغا ؟ . في مناخ كهذا . و لو مررت الآن بنفس الطريق ، وفي نفس الفصل ن سوف لن تسمع الا الزعيق والصراخ و الصوت العالي والضحكة العالية المتقززة التي هي شهادة فظة عنهم . نفس الطريق ، و نفس الفصل : طريق تكره المرور فيه ، و كأن الطبيعة انتقمت و جبت ما قبلها بعنب من سلوك المارين عليه ، قد لا تجد وردة واحدة لو قطعت الطريق ذهابا و ايابا ، وما بينهما من مدى رحب مقرف و عليل . و لا تجد عشبا أخضر يانعا ، و لو أنه طبيعي ، لكنك تحسه صناعيا الى أدى درجات التكلف و الحشو و الصنعة . ولن أبرربأن النهر الذي جفّ كان السبب الوحيد في ذبح الخضرة و الأزهار . بل ألقي الجريمة على الانسان وحده ، الذي من السهولة عليه أن يكثر مواد كيمائية بتفريط على بقعة أرضية معشبة و مخضرة مباحة للجميع تدخل البهجة الى قلوب الآلاف . بامكان انسان واع ، فكيف ان كان جاهلا أن ينحر تلك البهجة من الوجوه مقابل ربح زهيد يجنيه من أرضه التي هو مطلق الحرية فيما يفعله ، و للآ خرمطلق الصمت فيما يجابهه ، ولا يعلم - أو يعلم أكثر من الجميع – بأن جريمته تلك أضرت بما نقتاده يوميا ، فالخبز مثلا كانت رائحته تفور من مسافات بعيدة ، و تنتشر، و تشعر المرء الشمام نكهة ، و اندفاعا أو أن غريزة الجوع تنتابه لأن يأكل ، حتى وان لم يكن جائعا، فكيف به ان كان .. ؟
لا تصدقوا كلامي – أرجوكم – عليكم باختبار ما ، بامتحان ما بين رغيف الخبز الآن ، الذي لا طعم و لا رائحة و لاشكل و لا لون له . وبين أخيه رغيف الخبز الأمس .
حريّ بنا أن نعترف للآخرين ، قبل أن يصدموننا هم بالحقيقة : بأننا بتنا صناعيين : نفرح؛ و نكتئب و نتحرك بلا جمال و احساس . و لو أننا نضحك بملءْ أشداقنا , و نحزن بعلامات مميّزة ، و نتحرك و نقطع نفس الطرق التي قطعناها بالأمس،أو قبله ، ثم ما بعده ، و نسلم على نفس الأشخاص الذين سلمنا عليهم من قبل ، و ردوا عينا السلام مثلما تلقيناه من قبل . حتى لو صنعنا انسانا يشبهنا في الصفات و السمات والحركات لما تغير من الأمر شيء.
ثمة تداخل أو تناص بين الحيوات و الأشياء و الهوامش على الأرض ، على الطرق و الوجوه و الأمكنة التي بمتناول البصر واليد و العين ، وبين طقوس يعرفها من احترق بها ، أو من مارسها . بالأدق من سمعها من عل ، خاصة في المساء ، تخصيصا في الصيف حيث ينام أهالي مدينتي على سطوح منازلهم الترابية ، حيث يحلو السمر والصمت هناك ، و حيث تبدو عامودا مطفأة ، كأنها نجمة متفجرة أضاءت ساعات لتخلد الى الراحة . و لأهالي عامودا ذكريات باتت في مقبرة (كان و زال و ليت) حيث كانت السنما الصيفية تعرض فيلما كل يوم ، وتحديدا تلك الأفلام التي مازال لها مروجوها و مقلدوها و متقمصوها أيضا ، عنيت الافلام الهندية التي لا تفهم لغتها مدينتي ، غير أنها كانت تتفاعل

معها توحدا مطلقا ، خاصة أغاني تلك الأفلام التي تبثّ حزنا شفيفا يخاطب المكبوت الاجتماعي و النفسي لمدينتي ، اضافة الى جمال أصوات الأغاني تلك الى درجة ساحرة ، حيث ثمة شباب عندنا يقلدون تلك الأصوات بحرفتها و رقتها و لحنها ، و بصورة طبق الأصل من كثرة ارتيادهم اللأمتناهي لتلك الأفلام ، أو لاستماعهم اليها من فوق السطوح تلك ، حيث لا صوت و لا ضجيج ، وكأنها في حضرة طقس ديني ، وكأن عامودا كلها تستمع و تستمتع بالأصوات تلك ، وبمدّ البصر باتجاه الشمال ثمة عوالم أخرى لكنها بعيدة و عصية على الجميع ، عوالم مزخرفة بالألوان و الأشكال و الأضواء ، ثمة جبل عال و بعيد لكن مضيء باللأمتناهي من الأمنيات و الأحلام ، انه مدينة ماردين التركية
(الشمعة الوحيدة التي تبدد ليل عامودا) القريبة من كثيرين ممن يعيشون عندنا ، كانوا قد تركوها لأسباب ، سياقها ليس هنا ضمن مجالي الروحي و المكاني الذي أدونه هنا .
فأجمل ما كان في الجهة الشمالية الشرقية من عامودا طريق . ويسمى حتى الآن بـ((طريق الأشجار)) وهو الآن بالأطلال أشبه كان يمتد الطريق شمالاً مع الأشجار . حتى أنك لن ترى فيه إلا الأشجار الكثيفة الخضراء المدلاة . وكانت هذه الأشجار تمتد شمالاً مع الطريق حتى أنك لا ترى بين هذه الأشجار سوى أشجار ((الزيزفون))التي لا تنمو إلا حول البساتين و الحدائق. هذه الأشجار التي يندر وجودها الآن في عامودا ككل . وفي الطريق ذاك الذي يسمى باسمها، ذاك الطريق يعرف ، وكأنه عنوان للجميع ولم يحس أحد قط أن يكون عنوانه الخاص فقط . إن تواعدنا فالمكانِ ((طريق الأشجار)) . وإن تخاصمنا فكانت ساحة التخاصم ((الطريق ذاك)). وإن طبقنا إحداهن ، ففي ذاك الطريق، وكنا نتعارك مزحاً غليظاً لنلفت إلينا أنظار الفتيات . وإن أردنا أن نملأ عيوننا بالجمال ، فالفتيات في الطريق ذاك . إن تحامقنا أو تعصبنا . نتخاصم بجانب الطريق . والأشجار صامته لا تحتج . ونتصالح :متسامرين ... ضاحكين . لنتخاصم بعدها ثانية . بعدما ذهبنا وابتلعنا الطريق : متآلفين ، أصدقاء ، رفاق ، وعدنا من نفس الطريق : أعداء أو ما يشبه العداء ، كل منا يمشي في طريق .... وهكذا هي الحياة .

.....
ثمة طريق المقبرة . وكأنه خصص لمعتوه . أو هكذا خيل إلي ، كم من المرات التي لا تحصى مشيت فيه ليلاً أو يوماً حزيرانياً أو شتائياً هداراً إلا ووجدته فيه ،إما قادماً من الجنوب أو ذاهباً إليه . وكأن لا جهة إلا الجنوب والشمال . وكأن له عملاً مهماً في ذهابه وإيابه المتعجل . حتى أنه لا يستطيع . وليس لديه الوقت ليرد السلام ، أو يسلم على أحدٍ . لأن ذلك يؤخره عن أداء مهمته غير الموجودة أصلاً . فتراه يمشي في منتصف هذا الطريق . وتحس أنه يتحمل الطريق كله بضخامته الفوضوية . وثيابه المرقعة . وقميصه المفتوح من الأمام ليرينا صدراً حديدياً واسعاً . وأظنّ لو ان الطريق خانه ، وأفضى به الى طريق آخر ، لضاع ، وتشتتّ في الطريق.
لكن ثمة شخص آخر معتوه هو الذي يشتت الطريق . لأنّه يعرفها جيداً . ويعرف كم من المنازل فيها . وما هي أسماء أصحابها أيضاً لأنّ مهنته " وبائع التبن " عرّفته عليها .
ما رأيته إلاّ عجوزاً تجاوز الستين ، حتّى تصوّرته . وكأنه عجوز منذ طفولته . لم أعرف عالمه وتجواله. وإن كنت أراه دائماً إلاّ حين فقدتُه . فسألت عنه ، فقيل : مات .
آنذاك عرفت لم كان يسأل دائماً بصوت محّمر وغليظ عن توقيت الساعة . ودائماً يشكو منها لأنّها لا تمرّ سريعاً . كما يريد هو منها أن تمر . كان يحسّ بأنّ النهار طال . وإن خيّم الليل فسيطول حتماً . وهذا يعني له أن النهار ليلٌ ، وبالعكس . لأنّ كلاهما لا يمرّ وبالتالي فكل شيءٍ في الحياة هكذا . فإن باع تبنه كلّه . وكأنه لم يبعه . ولو أنّه يدور به في كل الطرق ليبيع " بضاعته " تبنه وإن لم يبعه . فكأنه باعه . لأنّ كلَّ شيءٍ في الحياة لا يساوي أيَّ شيءٍ .

.....
لكن ثمة معتوه لا تعرفه الطرق وحدها . بل المدن أيضاً . حتّى أن عزيزاً ، وصديقاً لي " **ابراهيم محمود** جعله من أهالي " القامشلي " لكثرة سفره إليها حتّى أنني سألتُ عن غيابه الطويل عن عامودا .

فقيل لي : لم يعد يطيقها . فهي تضيق به . وان أهاليها يجعلونه اضحوكة لهم : سخرية وتهكماً وكان الأولى بهم أن يدارونه في كلِّ شيءٍ يفعله . وأن يرحبوا به ، وبأي شيء يتفوه به ، حتّى ولو كان شتائم أو ضرباً . وللتذكير فقط أن قاموس هذا المعتوه المسالم لا يحتمل أية بذاءة كالتي يتعامل معها غيره . أقصد هنا الأسوياء الذين يدّعون " الحكمة والخلق الحسن والنظافة " . أجمل ما رأيته في هذا الرجل وقوفه الساحر أمام باب مكتب للبولمان في عامودا ، وقد تجمهر حوله شبان كثيرون . وهم يضحكون على نكتة يقولها هذا الرجل لهم . وكم كنت أحاسب روحي آنذاك بأشد العقوبة والحزن .وكانت هذه المحاسبة الداخلية : سؤالاً أطرحه على نفسي : لماذا لا يتكرم واحد من المتجمهرين حوله ليقول له طرفةً تدخل السرور إلى نفسه .

المهم في سيرة الرجل : أنّه يرتدي بذةً كاكية تتصدرها نياشين وأوسمة ورتب رفيعة ومقدرة . حتى أن الذي لا يعرف الرجل ، وعن كثب . سوف يخاف منه بمجرد أن يرى تلك النياشين والرتب والأوسمة التي تدخل إلى النفس قشعريرة مرعبة . وكأنّ عادة الرعب هذه وضمن هذا المجال والموقف هذا . تتناسب طرداً مع هذه النياشين والأوسمة . فكلما رأيت هذا الرجل ونياشينه ، وقّر في نفسي بأنه يخاف من الجميع ، فأفضل طريقة له كي يبعد الخوف عن نفسه هو وضع تلك العلامات التي لها دلالات ومعاني شتى : سياسية و اجتماعية ، وسوف لن أستطيع أن أعطي لتلك العلامات أية دلالات أو معانٍ .

الأهم في سيرة الرجل : أنّ بولماناً دهس إحدى رجليه بجانب الموقف الذي اعتاد الوقوف إزاءه . وكانت نتيجة هذه الحادثة قطع رجله اليسرى . فلزم الرجل بيته ، وهدأت روحه التي ما كانت تعرف الهدوء والاستقرار يوماً . وفي أية أرض تريدها .

موقف البولمان ذاك لم يعد يحتمل النظر إليه بعد غياب الرجل عنه .

هؤلاء نحن : نحن الذين نسكن الشمال

كتبت هذه النصوص في (1999 وحتى 2002)

تنضيد {دلشاد عبد الرزاق محمّد}
الحسكة - رأس العين هاتف : 812255

المدينة ستتبعك
وستطوف في الطرقات ذاتها
وتهرم في الأحياء نفسها
وتشيب أخيرا في البيوت نفسها
ستؤدي بك السبل دائما إلى هذه المدينة
فلا تأملنّ في فرار
إذ ليس لك من سفينة
ولا من طريق
وكما خرّبت حياتك هنا
في هذه الزاوية الصغيرة
فهي خراب أنّى ذهبت .

كفافي

عبد اللطيف الحسيني

من مواليد عامودا 1966 .
يكتب الشعر النثري منذ أكثر من عقدين من الزمن , ويعتبر من جيل التسعينيات الشعري في الجزيرة السورية .
أصدر حتى الآن بعض الكتب هي بالتوالي :
1 - نحت المدن الصغيرة - إن أحبتني فبقسوة وإن كرهتني أيضاً – بتقديم الناقد السوري محمد جمال باروت . إصدار عام 1995
2 – كتاب عامودا : وهو رصد للمدينة التاريخية عامودا . وقد أمضى في تدوينه لهذا الكتاب عدة سنوات . اصدار عام 2001
3 – مسودات مدينة : وهذا الكتاب نصوص سردية وحكائية لمدينة عامودا . اصدار عام 2002
4 – يكتب حاليا الجزء الثاني من مسودات مدينة بعنوان (نحن الذين نسكن في الشمال) يتناول فيه الكاتب السيرة الذاتية والمتخيلة والتوثيقية لأول من سكن في عامودا وهو الحاج بركو الجد ,الأكبر لهذه المدينة , والذي دشن بيتاً بجانب (جمي داري) نهر الخنزير . وبذلك برهن هذا الحاج على المقولة الكردية (آف آفاي).

ويكتب الشاعر عبداللطيف الحسيني المقالة النقدية في الدوريات المحلية المهتمة بالشؤون الكردية والصادرة باللغة العربية , وينشر في الصحافة السورية الرسمية .

بريده الألكتروني
abdiletif1@amude.com